كيف كنا نتناقش من نصف قرن

أكتوبر

فى سنة ١٩٣٧ نشرنا ، أنا والدكتور منصور فهمى ، سلسلة مساجلات فى جريدة الأهرام ، تسجل فيها انطباعاتنا عما يجرى عندنا فى المحيط الاجتماعى والسياسى . وكان منصور فهمى فى ذلك الوقت هو استاذ الفلسفة فى الجامعة ، كما أنه تنقل فى مناصب مختلفة ، منها عميد كلية الآداب ، ومدير دار الكتب ، ومدير الجامعة . . ثم تزاملنا فى المجمع اللغوى فى عهد أحمد لطفى السيد . . وكان هو الذى اقترح على إجراء هذه المساجلات نعبر فيها عما نراه من وجوه النقد فى مجتمع ذلك الوقت .

ولقد وقع نظرى أخيرا على ما نشرنا فى هذه المساجلات لأطالع صورة المجتمع المصرى فى أعيننا وقتذاك . ولم أجد تحت يدى اليوم سوى ما كتبت أنا . أما ما كتب الدكتور منصور فهمى فليس فى يدى . ولم يفكر أحد حتى الآن فى جمع هذه المساجلات ونشرها كاملة فى كتاب للمتساجلين حتى تتم معرفة الرأيين . ولذلك أكتفى هنا بنشر بعض نتف من رأيى فى صورة المجتمع المصرى فى ذلك العهد ، كما كانت تبدو لى . وكما تظهر من ردى عليه فى رأى له حيث قلت له : « ما تقول هو الواقع . . ان تفشى المادية وجموح الديموقراطية لمن أظهر الأمراض الاجتماعية اليوم . . ولعل الأولى نتيجة للثانية . فقد فهمت الديموقراطية فهما غريبا ، فهى اليوم مطية ذلول لمن يريد سرعة الوصول ! . . ولقد تزاحم الناس فعلا على ركوبها فحمحت بهم وانطلقت تهدم الأخلاق وتحطم المثل العليا . . انك لن تجد اليوم كثيرا من طراز أولئك الرجال الذين عاشوا متعففين ، لا مطمع لهم غير تلبية نداء الحق والواجب فى صوت جهير وخلوص ضمير . . لقد مضى ذلك الزمن الذى كان يجلس فيه العالم قابعا فى أطماره يلقى الحكمة على سامعيه ، ويجرى عليه الخبز ليعيش ، ثم يموت ولم تعرف يده ثقل الجنيهات ، فقد كفاها أن عرفت ثقل القبلات يضعها عليها الناس . . مضى ذلك الزمن الذى كنا نرى فيه الجاه والمال عاجزين عن انتزاع الطبيب من واجبه الإنسانى ، والقاضى من عدله المتزه ، ورجل الفقه من فتاواه المجردة ، والاستاذ من بين تلاميذه ودرسه ، ورجل الدين من بين تابعيه وزهده . . الآن نستطيع بترقية أو بعلاوة أن نلعب بلب أكثر هؤلاء ، وان نصرفهم عن ميادين نشاطهم الطبيعى ، وان نغريهم بمناصب لا صلة لها بعلمهم ولا بفضلهم . وهذا ما يحدث كل يوم . فقد ماتت المثل العليا . . وهذا ما أفقر دور العلم والفكر . ودور الدين والزهد . ودور العدل والفقه . ودور الفن والأدب ، من أربابها ، وزج بهم إلى التطاحن والتسابق فى ميادين المادة والوصول . . هنا أيها الصديق كل الخطر . . فإن تفشى المادية والوصولية فى جسم الأمة لا يخيفنى بقدر ما يخيفنى دنو الدهاء من رءوس الأمة . . أى خاصتها وقادة الرأى فيها . . ان هذه الرءوس هى المحتاجة الآن إلى العلاج . ولكن كيف ؟ ما هى تلك العملية الجراحية التى تخرج منها صديد المادية وتطهرها بماء القناعة والروحانية ؟ . . ثق ان فى الامكان صنع الأعاجيب لو استطعنا أن نعيد إلى الخاصة حسن ظنهم بالأخلاق . وصدق تقديرهم للمثل العليا . . إن من ملك قلبا حارا ولسانا حرا ، ولم يكن له فى زينة الحياة مطمع ، فهو وحده الذى يستطيع أن يسود العالم . . ألا ترى معى أن « المثل العليا » المحطمة فى حاجة إلى أن توضع من جديد شامخة فوق عروشها الرخامية الجميلة ؟ . . » .

ونشر الدكتور منصور فهمى مقاله فى اليوم التالى ، وختمه بسؤال كان ردى عليه هو الآتى :

« تسألنى عن أقرب الأسباب لإعادة حسن الظن بالأخلاق وتقوية الإيمان بالمثل العليا . . هنا كل المسألة . ولست أدرى من يبدأ بالعمل ؟ ومن يعطى المثل ؟ . . لقد ذكرت أنت « عمر بن الخطاب » . وما إخالك تنسى عندنا موقف ذلك العالم الفاضل « الشيخ الطويل » . . يوم دعاه « الخديو » فأبى إلا أن يذهب إليه بعباءته البالية الممزقة التى عليه ، فلما ألح عليه الناصحون أن يرتدى عباءة جديدة صاح فيهم : « أهو يريد رؤيتى أنا أم رؤية العباءة ؟ إن أراد العباءة فها هى ذى احملوها إليه ، وأن ارادنى أنا فإنى اذهب إليه كما أنا » . . المهم فى الأمر أن يوجد المثل الحى للأخلاق الحرة النزيهة العظيمة فى أى طبقة وأى بيئة وأى زمان . . وأعود فأجيبك على سؤالك الآن فى غير تردد : إن أقرب السبل إلى اعادة حسن الظن بالأخلاق والمثل العليا هو وجود « المثل » بالفعل . هو ظهور رجل واحد ومثل واحد حى نراه بأعيننا ونسمع صوته بآذاننا ونلمسه بأيدينا ونتبعه بأفئدتنا . ولكن هل كل مجتمع قدير على إخراج مثل هؤلاء الرجال . . أو أن أولئك لا يظهرون إلا فى مجتمع يهيئهم للظهور ؟ . . » .

ولست أذكر ، وقد مضى على هذه المساجلات ثلاثة وأربعون عاما ، ماذا كان رد منصور فهمى وليس بين يدى الآن ما كتب ونشر ، ولكن الذى عندى هو ما كتبت أنا ونشرت . . ولقد انتقلت بالمساجلة إلى موضوع آخر بهذا النص :

« هنالك أمر آخر يدعو إلى قلق على مستقبل نهضتنا . . إن أول شئ يحزننى حقيقة – وأرجو أن يكون قد استرعى نظرك على الأقل – هو أن « الكلام » له عندنا دائما كل القيمة . أما « العمل » فلا يسأل أحد عنه . . إن « الشكل » هو الذى يعنينا ويخلب منا اللب ، أما « الجوهر » فلا نكاد نلتفت إليه . . إن « الوسيلة » تنقلب عندنا دائما إلى « غاية » . . ولعلك رأيت فى محيط حياتنا العام كيف إن الأعوام قد مضت على مصر ، ونحن لا نعمل لها الا الصياح بملء أفواهنا هاتفين بكلمات الحرية والاستقلال ! . . ولقد نبذنا كل شئ وتركنا كل عمل من أعمال النهضة الحقيقية ، وجلسنا نتقاذف أقوالا ونردد كلمات . . إلى أن شاء القدر آخر الأمر ان ينقذنا من هذا التكاسل والقعود فقال : هاكم هنا

أحمد لطفى السيد

الخديو اسماعيل

نابليون بونابرت

الاستقلال (بمعاهدة ١٩٣٦) فقلنا : « هات » ! . . ثم أخذنا هذه الكلمة ، وجلسنا كما كنا لا ندرى ماذا نصنع بها . . نحن نقع دائما فى الحيرة كلما تركتنا الظروف وجها لوجه أمام العمل المنتج . وكأننا لا نجد فرجا ولا مخرجا إلا فى الصياح والجدل ! . . إلى لأخشى أن تظهر فى الأفق كلمات أخرى ، أو أن نخترع موضوعا جديدا للتصايح ، يشغلنا من جديد عن المضى الجدى فى حركة النهوض المنشود . إن العلة كلها ها هنا . . ان روح « العمل » وعبقرية « الخلق » تمار لم تلق بعد بذورها فى أرض مصر . حاجتنا شديدة إلى هذا الصنف من رجال العمل الذين لا يصرفهم عن الخلق والبناء شئ فى الوجود . . إنك لا ريب تذكر « نابليون » فى غزوته لروسيا ، وكيف خذله البرد والجليد . غير انى أريد منك أن تذكر ماذا فعل هذا الرجل عندما وجد نفسه محصورا فى تلك الأصقاع لا يدرى ماذا يفعل ! . . استغفر الله ! . . إن الرجل العظيم يعرف دائما ماذا يصنع ، ولا يطيق مطلقا أن يقعد دون أن يخلق شيئا . . فهو لم ينفق وقته فى صياح ، ولم ينتظر الغد مستلقيا على ظهره . . ولكنه شمر فى الحال عن ساعديه للعمل وجعل وهو فى كربه وضيقه يفكر فى إصلاح بلاده ، ويضع بالفعل وهو بعيد عنها . الأسس اللازمة لتنظيم الحركة الفكرية والاجتماعية فيها . وكان من بين تلك المنشآت مشروع « الكوميدى فرانسيز » إحدى منارات الثقافة الفرنسية فى العالم . وكذلك فعل هذا الرجل فى « مصر » يوم حطم خصومه اسطوله وانقطعت صلته بوطنه . فلم يضعف عزمه . ولم تفتر روح العمل فيه ، وقال لم لا أصنع فى مصر حضارة أخرى ؟ وشرع من فوره يبنى دعائم المعاهد العلمية (مثل المعهد العلمى المصرى) ، ويضع أحجار النظام لطرائق الحكم وأسباب العمران ! . . ولكن . . من المسئول عن موت روح العمل المنتج فى هذه الأمة ؟ . . أهم رءوسها الذين عودوها سياسة الكلام . . أم هى الأمة نفسها التى لا تحب ولا تحتمل بعد غير هذا الصنف من الطعام ؟ ؟ . . .

وقد رد الدكتور منصور فهمى برد أردفته بهذا التعقيب :

« مادمنا قد اتفقنا على أن « العمل » قد حان له أن يحل محل « الكلام » . ومادمت يا صديق قد طلبت إلى أن أمضى فى ذكر التفصيلات ، فإنى أقول لك إن أول ما ينبغى عمله هو وضع « البرنامج » . وقد ترد على بأن « البرامج » هى أيضا مما يدخل فى منطقة « الكلام » . ولكن ما الحيلة إذا كانت حتى هذه الخطوة الأولى فى سبيل العمل لم نخطها بعد ؟ . . إن كل النهضات التى قامت بها الحكومات الحديثة فى بلادها . خصوصا بعد الحرب (الحرب العالمية الأولى) ، قد تمت وفق منهج مرسوم ولحدد لتنفيذها زمن معلوم . فقالوا : هذا نظام « خمسى » وهذا نظام « عشرى » . تبعا لعدد السنوات التى قرر المختصون أنها لازمة لظهور المشروعات . فأين نحن من هذا ؟ . أتستطيع مثلا أن تقول لى : هل وضع نظام ثابت نحو الأمية من البلاد فى ظرف سنوات معلومة . . حتى ترتب على هذا الحدث نتائج اجتماعية واقتصادية وسياسية نواجه بها هذه النهضة القادمة ؟ أيمكنك أن تقول لى : هل هنالك مشروعات اقتصادية درسها الخبراء ، وقرروا لها زمنا تتم فيه ، وتخرج للبلاد فى نهايته وسيلة جديدة من وسائل الإنتاج تزيد الثروة الأهلية الزيادة التى تتعادل مع نمو عدد السكان ، وتسد الحاجات المنتظرة والمطالب المستقبلة . . أو أننا سنظل دائما كما نحن وكما كنا منذ أدخل الخديو اسماعيل فى مصر زارعى القطن والسكر ، لا نفكر فى مصدر جديد للثروة ينفعنا فى الغد ؟ . . وهل فى مقدورك أن تقول لى : هل درس الباحثون سياسة ثابتة للتعليم الجامعى ، وخطة واضحة لتوجيه الثقافة العامة فى نهضتنا . وإلى أى مدى ننحو نحو الحضارات القائمة . أو اننا سنبقى حيارى فى حدائق المعرفة . لا ندرى ماذا نأخذ وماذا ندع ؟ . . فأنت ترى أنه لم يوضع شئ بعد ، حتى على الورق ، لتحديد العمل والزمن . . فهل أنت مازلت من المتفائلين ؟ . . . »

ولست أدرى أو أذكر بماذا رد وعقب الدكتور منصور فهمى . . ولكن الذى أجده فى كتابى وتعقيبى أنا هو هذا النص :

« كارثة أخرى من الكوارث التى نكبت بها مصر . . هذا الغلو والإغراق فى الخصومات ، فإذا اختلفنا على رأى فنحن أفيال هائجة تدوس كل شئ وتحطم كل شئ . . ان فى كل بلد راق حدودا مقدسة تقف عندها الخصومة ، وأسلحة لا يلجأ إليها أبناء الوطن الواحد ، واقحام الدين مثلا فى ميادين الخلاف السياسى امر لا يمكن أن يحدث اليوم فى اى شعب ديموقراطى متحضر . فالديموقراطية ليست كلمة تقال فى الخطب ، لأنها جميلة ذات رنين ، ولا هى بناء شامخ يسمونه « البرلمان » ، ولكن الديموقراطية هى روح المساواة والإخاء وحرية الفكر المكفولة للجميع . . وان كل طعنة تصيب كتلة الوطن فتحللها إلى عناصر أو طوائف إنما هى طعنة مسمومة تصل مباشرة إلى قلب الأمة وصميم الديموقراطية . كذلك ينبغى أن نتذكر دائما ان الخصم فى المبدأ هو مواطن مصرى قبل كل شئ ، وأن خصومة المبادئ ليس معناها القضاء المبرم على الأشخاص بكل الأسلحة ، وتعطيل كل أدوات المنفعة التى ترجى منهم فى وقت من الأوقات . فليس من حق مواطن أن يقضى على مواطن آخر قضاء يخرجه إلى الأبد من ميدان النفع العام . إنما الغرض الذى يسعى إليه الجميع هو خدمة الوطن وحده . . فلتكن الخصومة فى حدود التنافس على القيام بخدمة المجموع ، وليعتقد كل فى خصمه أن عجزه يوما عن خدمة بلاده على الوجه المطلوب لا يمنع من استطاعته ذلك فى يوم آخر . فلتكن اذن السهام المصوبة من طرف إلى طرف فى غير مقتل من الشخصية والآدمية والشرف . فليس من مصلحة الوطن أن تفرش أرضه بصرعى وقتل من أبنائه العاملين . انما المصلحة هى فى أن تتداول السواعد إدارة العجلة ، وان تتهيأ لكل يد الفرصة لخدمة البلاد . . » .

هكذا كانت تلك « المساجلات » بينى وبين الدكتور منصور فهمى فى الثلاثينيات . . وهكذا كنا فى تلك الأيام نتكلم فى أمر مجتمعنا المصرى . . ولو لم تكن هذه المساجلات قد نشرت بالفعل بنصها هذا فى جريدة الأهرام عام ١٩٣٧ لكنت أنا نفسى قد استبعدت كتابتها فى ذلك التاريخ . فليشهد اذن قارئ اليوم كيف كان المفكرون فى الثلاثينيات يرون حالة المجتمع المصرى ويسجلون آراءهم فيها ويعرضون آمالهم فى تغييرها . ثم إلى أى مدى تحققت الآمال ؟ ! .

توفيق الحكيم